ليبدو وكأنه قطعة من الحدث اليومي لم يتم الشاعر الا بالتقاطها . هنا تقع الاضافة الاساسية التي يحققها هذا الشعر . فهو لا يقع في مأزق «واقعية» الخمسينات ، حين كانت البداية في رحلة التمرد على عمود الشعر بوصفه شكلا . وكانت القصيدة « الواقعية » مجرد التقاط لبعض عناصر الواقع الاجتماعي — السياسي ، وربطها في سياق ايديولوجي مكشوف ، ومحدد الغايات . حيث اللغة حادة الاطراف ولا تحتمل اي انحناء ، وحيث عناصر العلاقة الاساسية تأتي من خارج القصيدة. فالعلاقات التي ترسمها القصيدة ، هي مؤشرات على علاقات « الواقع »، ولا تتضح تأشيريتها الا داخل لغة سياسية واضحة، تستعيد الشعار وتعيد صياغته في ماجس تحريضي . هنا تستقيم المعادلة في طرفين واضحين . البداية والنهاية ، الشعر وتلقي الشعر . وتنسحب احتمالات بنية اللغة نفسها لتتحول خيطا رفيعا وحادا لا يحتمل التاويل . سعدي يوسف ، يبقى واقعيا بالمعنى النقيض لهذه الواقعية البسيطة . انه مليء بالاحتمالات والجدل ، كحركة الواقع ، لا يكررها ، بل ينتقي عناصرها ويعيد صياغتها داخل القصيدة. فتبقى القصيدة شفافة كمياه هادئة ، تعتقد للوهلة الاولى انها ليست اكثر من انعكاس للواقع في احداثه اليومية . لكننا نكتشف بعد حين عمق الماء الذي يعكس والذي يعيد في حركته صياغة ما يحاول كشفه .

لغة الحلم واشارات الواقع

« تحت جدارية فائق حسن » ، محاولة اخرى لمزج اللغة بالحلم . الدلالة واضحة العناصر ، لا تبحث عن عمق خاص او تعقيدات في التجربة . انها التجربة المباشرة وقد لبست لغة الحلم . هنا تصبح الدلالة احتمالية ، فتتركب عناصرها من اكثر من مصدر واحد ، تكتشف سلسلة من المواقف المتداخلة ، التي هي التعبير عن حركية الحلم داخل الواقع :

« منذ ان كنا صغارا عرفناك ، في وطن ، انت سميته ...

في رجال تخيرتهم كالبداهة ... كالمنتهى ...

نحن لم نحتكم ،

والبنادق والعشب لم تحتكم مرة ، والطريق التي جئتها لم

تمل ... انها السالكون » .

في الجملة المستديرة ، التي تتركب منها القصيدة الاولى في المجموعة « نحن لم نحتكم » ، محاولة للوصول الى جملة شعرية مفتوحة ، فالفواصل التي تقيمها القافية ، هي استدارات داخل جملة واحدة ، تحمل احتمالات عديدة لموقف واحد . فالتشبيه البسيط الذي يبدو من خلال الاكثار من ادوات التشبيه ، كالبداهة ، كالمنتهى ، هو تشبيه تجريدي ، لا يأخذ مدلوله الا داخل حركة العناصر ، فيمتزج العنصر الانساني بالطبيعة ، البنادق بالعشب ، ليؤشر الى الطريق التي لم تمل « انها السالكون » . هذه العناصر المتعددة حين تمتزج تؤدي في بساطتها الى اكثر من امكانية دلالة شعرية . فدلالة الشعر هي في ما يقوله وليس في معنى ما يقوله . هذا الافتراض ، لا يتحقق الا داخل استدارة الحلم في جسد العناصر الواقعية ، وحين يختار سعدي يوسف ببساطة اللحظة الانسانية ، يبحث عن اعماقها ، فلا يبقى اسير الخط الواحد ، يصبح الواقع اشارات لا تنتهي داخل دلالة اللغة الشعرية التي تعيد تنظيم الدلالات بوصفها احتمالات فعل .

إما حين تأتي الغنائية المباشرة ، كما في قصيدة « في تلك الايام » ، فانها تأتي داخل ايقاع متوتر ، يلتقط ادق التفاصيل ويمزجها ببعضها ، ثم يزاوج بين اكثر من مصطلح ايقاعي واحد ، يعود الى اشكال الشعر الشعبي ليستعير منها ابتاماتها ، ويصل بشكل مباشر الى الرسالة السياسية التي تقع خلف القصيدة :

« او لم تتطوع في مدريد ، اما قاتلت وراء مداريس

الثورة في بتروغراد ، ألم تقتل في اضراب النفط » .

لكن لغة الرسالة السياسية ، لا تستطع في برودة الشعار المباشر ، تبقى في غنائيتها طموحة للوصول الى توفير جميع تفاصيلها ، فتعي التفاصيل ونحن ننساها ، وتصبح اللحظة الشعرية ، لحظة حركة كأنها حلم ، يستجمع عناصر الواقع بوعي ويعيد سكبها من جديد .